مـجلـــة بـدايـــات
Email :bidayat@lagh-univ.dz Revue :Bidayat ISSN: 2676-198X
المجلد: الخامس (05) / العدد: الأول (01) / جانفي 2023 / ص ص: 49-67

رسائل القالميّ وابن محشرة ـ دراسة فنّيّة ـ

The letters of Al-Qalami and Ibn Mahsharah - an artistic study -

شارف محمّد

Charef Mohamed

[1] **جامعة العقيد أحمد دراية أدرار (الجزائر)**

البريد الإلكتروني: moh.charef@univ-adrar.edu.dz

تاريخ الإرسال:30-03-2022	تاريخ القبول:13-05-2022	تاريخ النشر: 14-01-2023

مُلخّص البحث

يهدف هذا البحث إلى دراسة رسائل شخصيتين جزائريتين نالتا مكانة مرموقة في بلاط دولة الموحّدين في القرن السّادس الهجريّ، وهما أبو القاسم القالمي وتلميذه أبو الفضل ابن محشرة، المنحدرين من قلعة بني حمّاد، فقد كان الأوّل كاتبا لعبد المؤمن بن عليّ، وساعده في ذلك ابن محشرة إلى أن مات فأخذ مكانه، وكلاهما كاتب متمرّس عارف بفنون الإنشاء، مطّلع على مجريات الأحداث في المغرب والأندلس، وتتميّز رسائلهما بالتزام البناء الفنّي للرّسائل الدّيوانيّة، من افتتاح ومقدم وغرض مقصود وخاتمة، مع براعة في الاقتباس والتّضمين، خاصّة من القرآن الكريم، يليه الحديث الشّريف، ثمّ الشعر العربي القديم، مع براعة في سبك الجمل والعبارات من غير تكلّف، إضافة إلى الإجمال تارة والتّفصيل تارة أخرى

الكلمات المفتاحية : القالميّ ؛ ابن محشرة ؛ الرّسائل الدّيوانيّة ؛ الموحّدون ؛ الاقتباس.

Abstract:

This research aims to study the letters of two Algerian personalities who attained a prominent position in the court of the Al-mowahidin state in the sixth century AH. Until he died and took his place, both of them are experienced writers who know the arts of construction, familiar with the course of events in Morocco and Andalusia.

Their letters are distinguished by their commitment to the technical construction of the Diwani messages, from an opening, an introduction, an intended purpose, and a conclusion, with skill in quoting and inclusion, especially from the Noble Qur'an, followed by the noble hadith, then ancient Arabic poetry, with skill in casting sentences and phrases without pretension, in addition to sometimes summary and detail. other time

Kayswords: Al-Qalami . Ibn Mahsharah .Diwani messages . Al-mowahidin . quoting

المؤلف المرسل: شارف محمد: moh.charef@univ-adrar.edu.dz

مقدّمة:

نشأت دولة الموحّدين في القرن السّادس الهجريّ، على يد محمّد بن عبد الله بن وجليد بن يامصال المعروف بالمهديّ بن تومرت[1]، الذي سعى جاهداً لنشر هذه الحركة الدّينيّة، وأخذ يجهر بها في كلّ بلد يذهب إليه، مثل: مصر، وتونس، وطرابلس، وقسنطينة، ومراكش، وتلمسان، وفاس، وقد أيّده في دعوته كثير من الأتباع، ممّا مكّنه من قيادة ثورة كبيرة، استطاع من خلالها الدّعوة إلى الأصول الجامعة، والقضاء على الفروع، كما أنّه أسّس حكومته في المغرب، وأضفى عليها الصّبغة المهدويّة والتّأويل العقليّ، واستمرّ ابن تومرت يحشد الأنصار والمؤيّدين لدعوته، إلى أن حظي بمبايعة الأمّة المغربيّة له، لتولّي الحكم في عام 516هـ، وذلك بعد أن استطاع القضاء على دولة المرابطين، واستمرّ في الحكم إلى وفاته عام 524هـ.

وقد استلم الحكم من بعده عبد المؤمن بن عليّ، الذي وسّع حدود حكمه؛ لتشمل المغرب الأقصى بأكمله عام 541هـ، وأعلن بذلك نشوء دولة الموحّدين، كما وسّع حدود دولته، لتضمّ الأندلس، وخاض معركة الأرك ضدّ الإسبان، وقضى على حكم النّورمان، والمرابطين في مراكش وتونس، واستطاع بحنكته العسكريّة تكوين جيش قويّ بلغ تعداده نصف مليون مقاتل، وتولّى حكم الموحّدين بعده خليفته أبو يعقوب بن يوسف المنصور[2]، الذي بلغت الدّولة في عهده عصرها الذّهبيّ، وأوجّ ازدهارها، حيث بنيت القلاع والمساجد والمارستانات، واستمرّ المنصور في حكمه إلى وفاته عام 595هـ، واستلم الحكم محلّه ابنه محمّد النّاصر، غير أنّ الدّولة شهدت بداية سقوطها، بسبب الهزائم المتتالية، حيث وقعت تحت حكم بني مرين سنة 668هـ.

وبقيام دولة الموحّدين كان لابدّ لها من تنظيم أمورها السّياسيّة والعسكريّة، حتّى تستطيع السّيطرة على الأوضاع المحيطة بها، وتوطّد أركان الحكم، لذلك سعى ابن عبد المؤمن إلى استقدام كتّاب لديوانه من مختلف حواضر المغربين الأوسط والأقصى، ليكونوا عوناً له على المراسلات بينه وبين السّلاطين والأمراء والرّعيّة والمتمرّدين وغيرهم، من هؤلاء أبو القاسم القالميّ وأبو الفضل ابن محشرة،

فإلى أيّ مدى بلغت شهرة الرّجلين في ديوان الإنشاء الموحّديّ، وما الخصائص الفنّيّة في رسائلهما؟.

ويهدف البحث إبراز مكانة الرّجلين في بلاط الموحّدين بمراكش، والمراتب التي وصلا إليها باعتبارهما من كتّاب الرّسائل الدّيوانيّة القلائل الذين وضع فيهم الموحّدون ثقتهم، فكانت رسائلهما من النّماذج الأدبيّة الجزائريّة في هذا الفنّ، وخير دليل على ذلك ما نجده من أسلوب رائق والتزام بخصائص فنّيّة للرّسائل الدّيوانيّة بعامّة، والرّسائل الموحّديّة بشكل خاصّ

1 الرّسائل الدّيوانيّة، تعريفها وبناؤها الفنيّ.

يسمّى كاتب الرّسائل كاتب السّرّ، وهو يد الخليفة وكاتبه ومستودع أسراره، كما كان عمر لأبي بكر، وعثمان لعمر، وكان الخلفاء في أوّل عهد الإسلام لا يولّون هذا المنصب إلّا أقرباءهم أو خاصّتهم، لما فيه من الخطورة، وظلّوا على نحو ذلك إلى أيّام بني العبّاس، فكان كتّابهم في أوّل الأمر يستبدّون في الأمر دونهم، ثم صارت الكتابة إلى وزرائهم، ولم يكن الوزير يكتب الرّسائل أو الرّقاع بيده، ولكنّه يمضيها أي يوقّع عليها كما يفعل اليوم الوزراء والرّؤساء، وأوّل من وقّع على الرّقاع عندهم يحيى بن جعفر البرمكيّ[3]، لما أطلق الرّشيد يده في أمور الدّولة ومقاليدها، فصار إذا رفع أحد كتابًا في ظلامة أو طلب رزق أو نحو ذلك وقّع يحيى عليه بيده، وصار الوزراء بعده يوقّعون على الرّقاع أو القصص، وربما انفرد بعضهم في ولاية ديوان السّرّ أو ديوان الرّسائل أو الإنشاء.

وفي أخريات دولة بني العباس استقلّت الكتابة وعهد فيها إلى غير الوزراء، وكانوا ببغداد يقال لهم كتّاب الإنشاء، وكبيرهم يدعى رئيس ديوان الإنشاء أو صاحب ديوان الإنشاء أو كاتب السّرّ، وكلّ أمور هذا الدّيوان إلى الوزير، وكانوا يسمّونه أيضًا الدّيوان العزيز، وهو الذي يخاطبه الملوك في مكاتبات الخلفاء بما يشبه ديوان الرّياسة.

وذكر "إحسان عبّاس" أنّ لفظة الكاتب في الأندلس تطلق على طبقتين من النّاس: كتّاب الرّسائل وكتّاب الزّمام؛ أمّا كاتب الرّسائل فله حظّ في القلوب والعيون عند أهل الأندلس، وأشرف أسمائه الكاتب، وبهذه السّمة يخصّه من يعظّمه في رسالة ... وأما كاتب الزّمام فهو المسؤول عن الخراج[4].

وما يهمّنا هنا هو كتّاب الرّسائل الدّيوانيّة، الذين غالباً ما يتم انتقاؤهم انطلاقاً من قدرتهم على الإبداع في الكتابة وفق المتعارف عليه في هذا النّوع من الرّسائل، خاصّة من حيث البناء الفنّي، وقد «أخذت الرّسائل الدّيوانيّة تزدهر في المغرب الأقصى منذ عهد يوسف بن تاشفين أمير دولة المرابطين واستدعائه أبا بكر بن القصيرة[5] رئيس ديوان المعتمد بن عبّاد وتكليفه برياسة ديوانه في مراكش عاصمته، وكان آية في البيان والبلاغة، فأرسى في الدّيوان المرّاكشيّ تقاليد الكتابة الدّيوانيّة الأندلسيّة، وظلّ رئيساً لهذا الدّيوان حتّى وفاة يوسف بن تاشفين سنة 500 للهجرة»[6]

والرّسالة فنّ من الفنون النّثريّة التي لها بناؤها وخصائصها الفنّيّة التي ذكرها من عني بهذا الفنّ، لأنّ الرّسالة باعتبارها جنساً أدبيًّا يجب أن تتوفّر على عناصر تجعلها تدخل في "باب الأدب" مثلها مثل غيرها من الأجناس النّثريّة كالخطابة، ومن أوائل الذين أشاروا إلى تلك الأجناس أبو هلال العسكريّ في كتابه الصّناعتين، حيث يقول: «واعلم أن الذي يلزمك في تأليف الرّسائل والخطب هو أن تجعلها مزدوجة فقط ولا يلزمك فيها السّجع فإن جعلتها مسجوعة كان أحسن ما لم يكن في سجعك استكراه وتنافر وتعقيد»[7]

1- **الافتتاح:** كانت الرسائل النثرية غالباً ما تفتتح بالبسملة والتحميد والصلاة على رسول الله أو مبتدئة بالدعاء للمرسل إليه، وذكر اسمه وتعداد مناقبه بما يتناسب ومن يكتب إليه، أميراً أو وزيراً أو صديقاً، ومن الأمثلة التي تبدأ بالدعاء للمرسل إليه، قولك: أطال الله بقاء سيدي ومولاي الجليل القدر، سماحة الشيخ الجليل حفظه الله ورعاه، إلخ.

2- **المقدمة:** وفيها تعبر عن عاطفتك نحو المرسل إليه، إما بالدعاء له، أو بإقرائه السلام، أو غير ذلك مما يلائم الموضوع والشخص المكتوب إليه.

3- **المقصد والغاية (الغرض):** وهو جوهر الرسالة، ويتناول ذكر الغرض الرئيس الذي من أجله وضعت الرسالة، وينبغي هنا عدم الإسهاب، والاقتصار على تفصيل هذا الغرض بالذات.

4- **الخاتمة:** وبها يختم الكاتب رسالته بطريقة مماثلة لمقدمة الرسالة، أي بعبارات تؤكد العواطف والأفكار التي جاءت في صلب الرسالة. ومن صور الختام: "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته"، "والله تعالى يجعلنا وإياكم ممن شكر النعمة وآثر العمل الصالح، وقدمه بمنه"، و"والله ولي الصابرين" ، إلى غير ذلك مما يناسب موضوع الرسالة، والشخص المرسل إليه. ومن آداب الرسالة أن تذيل بإمضاء المرسل، وأن يعين فيها تاريخ كتابة الرسالة، وأن يذكر عنوان المرسل بوضوح.

2 – ترجمة القالمي وابن محشرة

نشر بروفنصال سبعاً وثلاثين رسالة من إنشاء كتّاب الدّولة المؤمنيّة، وطبعت بالمطبعة الاقتصاديّة بالرّباط عام 1941، وهي رسائل ديوانيّة تضمّ في ثناياها أهمّ الحوادث التي وقعت في أيّام الموحّدين من تدابير سياسيّة، وإصلاحات اجتماعيّة، وغزوات

وانتصارات حربيّة، لذلك فإنّ قيمتها التّاريخيّة واضحة للعيان، مادام كتّابها موظّفون رسميّون، اصطفاهم عبد المؤمن وأولاده من بعده، سيما وأنّ الدّولة الموحّديّة قامت على أنقاض المرابطين، وكانت في بدايات تكوينها السّياسيّ والعسكريّ، فكان لابدّ من سيطرة نفوذها على المغرب والأندلس، وصدّ الهجمات المعادية وإخماد الثّورات الدّاخليّة، أمّا من النّاحية الأدبيّة فهي نماذج لتطوّر أدب الرّسائل في المغرب والأندلس في القرنين السّادس والسّابع الهجريّين، وتبرز الأسلوب الذي كانت تصاغ به تلك الرّسائل، والكتّاب الذين نشر بروفنصال رسائلهم هم:

أبو جعفر[8] وأبو عقيل ابن عطية: هما أحمد بن أبي جعفر بن محمّد بن عطيّة وأخوه، من أهل مراكش، أصلهما من طرطوشة شرقي الأندلس، كان أبوهما من أهل الحديث، كتب الأوّل لعلي بن يوسف المرابطي، ثمّ لابنه أحمد، وبعد فتح مراكش اختفى ضمن الجند الموحّديّ، وشارك في حملة الشّيخ أبي حفص الهنتاتيّ على الثّائر الماسي[9] حيث كان ضمن الرّماة، فكتب رسالة النّصر عن الشّيخ إلى الخليفة عبد المؤمن، فكانت هذه الرّسالة طريقه إلى الكتابة والوزارة[10]، إلى أن تعرّض للنّكبة مع أخيه أبي عقيل فقتلا في آخر صفر سنة 533هـ، وكان يساعده في عمله عدد من الكتّاب منهم أبو القاسم القالميّ وأبو بكر محمّد بن عامر الأوسيّ، وعدد الرّسائل التي نسبها إليه بروفنصال ضمن المجموع ستّة عشر رسالة هي: 1 – 2 – 3 – 4 – 5 – 6 – 7 – 9 – 10 – 11 – 12 – 13 - 14 – 15 – 19 – 23. أمّا ابن عقيل فأورد له رسائل ثلاثاً وهي: 8 – 16 – 17.

أبو الحسن بن عياش[11]: بن فرج بن عبد الملك بن هارون الأزديّ القرطبيّ، من أهل يابرة، سكن أبوه قرطبة ونشأ هو بها، كتب لبني حمدين أيّام قضائهم، وخلال ثورتهم لجأ إلى إشبيلية، ثمّ كتب بها على كُره لعاملها الموحّديّ أبي إسحاق برّاز بن محمّد المسوفيّ[12]، ثمّ للسّيّد أبي حفص بن عبد المؤمن، وممّا كتب عنه رسالته من ظاهر مرسية بعد هزيمة ابن مردنيش[13] في معركة "الجلاب"[14]، استدعاه عبد المؤمن لكتابته بعد مقتل ابن عطيّة، ثمّ كتب لابنه يوسف وهو وال لإشبيلية، واستمرّ كاتباً له أيّام خلافته إلى وفاته سنة 568هـ، وأورد له بروفنصال من الرّسائل ثلاثاً هي: 18 – 24 – 25.

أبو الحكم بن عبد العزيز بن المرخي: اللّخميّ القرطبيّ من أهل إشبيلية، ولد سنة 519، وتعرف عائلته ببني عبد العزيز وبني المرخيّ واشتهرت بالآداب والكتابة الرّسميّة، فقد كان أبوه أبو بكر نظيراً لأبي بكر بن أبي الخصال في البلاغة والكتابة، وكلاهما كتب عن الأمير المرابطيّ علي بن يوسف، ولأبي الحكم رسالة حول معركة "فحص هلال" سنة 568هـ، ثمّ رسالة أخرى حول إعادة فتح قفصة سنة 576هـ، وتذكر المصادر ومنها "المراكشي" أنّ أبا يعقوب بن عبد المؤمن خيّم بظاهر إشبيلية في إحدى غزواته (لعلّها غزوة شنترين)، ونهى أهل محلّته عن الدّخول إلى المدينة، فدخل إليها أبو الحكم فهجره الخليفة ثمّ أقصاه ولم يعد إلى الكتابة، وقد ذكر له بروفنصال رسالة واحدة رقم 20.

أبو عبد الله بن عياش: محمّد بن عبد العزيز بن عبد الرّحمن بن عبيد الله بن عيّاش التّجيبيّ، أصل سلفه من سرقسطة، ولد سنة 550هـ، ببرشانة (من عمل المرية) ونشأ بها، وصفه صاحب التّكملة بأنّه رئيس في صناعة الكتابة خطيب مصقّع، لا يفهم كلامه إلّا حفّاظ اللّغة من أهل العلم، ابتدأ الكتابة الرّسميّة في خدمة أبي حفص عمر الرّشيد بن الخليفة يوسف أثناء ولايته لمرسية، فلمّا قتله المنصور سنة 584هـ، اختفى بن عيّاش ثم عفى عنه المنصور واستكتبه سنة 586هـ، كما كتب بعده عن النّاصر ثمّ المستنصر، وظلّ كاتباً في ظلّ الموحّدين أزيد من ثلاثين عاماً، توفّي في 25 جمادى الثّانية سنة 618هـ، وبالنّسبة لبروفنصال فقد نشر له ثلاث رسائل وهي: 35 – 36 – 37.

2–1 أبو القاسم عبد الرّحمن القالمي[15]:

من قالمة وهي من قطر بونة، وقد وقع تحريف لنسبته، إذ هو القالميّ وليس العالميّ كما أورده نويهض في معجمه، الذي يبدو أنّه نقله من العماد الأصفهانيّ، وعلى العموم فإنّ تاريخي ميلاده ووفاته غير معروفين، غير أنّ المؤكّد أنّه توفّي قبل سنة

561هـ، 1166م[16]، وهي السّنة التي ألّف فيها ابن بشرون كتابه "المختار" وذكره فيه، ويبدو أنّه كان من الكتّاب المرموقين في قلعة بني حمّاد، وهو ما جعل عبد المؤمن لما فتح بجاية يستكتبه بينما استمرّ ابن عطيّة في الوزارة إلى سنة 553هـ، وكتب لعبد المؤمن مع القالميّ أبو محمّد عيّاش بن عبد الملك من أهل قرطبة، وساعده أيضا ابن محشرة، الذي ظلّ يخدمه إلى أن مات، فكتب مكانه، ومن الرّسائل التي كتبها القالميّ الرّسالة رقم 21 في "مجموع رسائل موحّديّة" بتاريخ ربيع الآخر سنة 555هـ، والرّسالة 22 حول معركة فحص هلال سنة 568هـ، وذكر العماد أنّه من كتّاب الدّولة الحمّاديّة، وله رسالة منها قوله:

«ولما كنت في مضمار سلفك جارياً، ولنا موالياً، وفي قضاء طاعتنا متباهياً، رأينا أن نثبت مبانيكن ونؤكّد أواخيك، ونوجب لك ولخلفك ما أوجبه سلفنا لسلفك، تمييزاً لهم عن الأكفاء، ومجازاة لهم على محض الصّفاء والولاء، فاستدم هذه النّعمة العظيم خطرها بالشّكر فأنت به جدير، ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُور﴾[17]»[18]

وفي مجموع رسائل موحّديّة ل"بروفنصال" –كما أشرنا إلى ذلك – رسالتان، تحدّث القالميّ في الأولى عن هزيمة الأعراب الهلاليّين واستسلام الكثرة من القبائل للموحّدين ودخولهم في طاعتهم، وفي ذلك يقول: «من أمير المؤمنين – أيّده الله بنصره، وأمدّه بمعونته – إلى الطّلبة والشّيوخ والأعيان والكافّة من الموحّدين من أهل فاس – أعزّهم الله بتقواه، وأدام كرامتهم بحسناه – سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ... وإنّا كتبناه إليكم –كتبكم الله ممّن تعرّف آلاءه المستعادة، وجعل انتظار الفرج بالصّبر عبادة، وبوّء بقرارة اليقين لتنجرّ ما في ضمن الوعد من كلّ فتح مبين مهاده، وقابل نعمه التي تجلي قرّة أعين صورتها، وتثني ثبج أسماع سورتها، من الشّكر الأحفى، والحمد الأوفى، ما يستهبّ نفحات الزّيادة، ويصل أواصر الالتحام، ووصائل الانتظام بين مبديه منها ومعاده»[19]

وفي الرّسالة الثّانية نجد القالميّ يتحدّث على لسان ابن عبد المؤمن في تنكيل هذا الأخير بالنّصارى في ضواحي قرطبة، حين حاولوا الإغارة على الجيش العربيّ، وفي ذلك يقول: «الحمد لله الذي قدّم لأوليائه أمره فيما يرومونه من تدويخ العدوّ وقهره يوماً على الكافرين عصيباً، وصنع لهم في إبراز الكفرة إلى مضاجعهم وسوقهم على قدم الاعتزاز صنعاً عجيباً، ووعد القائمين بدعوته، النّاصرين لملّته، فتوحاً آزفة يفتحونها، ومغانم كثيرة يأخذونها ... وإنّا كتبناه إليكم –كتبكم الله ممّن أحسن تلقّي البشائر، ووفّى النّعمة حقّها من شكر الشّاكر، وجعلكم من الذين أشرقت لهم أنوار الهداية فائضة على الأبصار والبصائر – من حضرة فلانة – حرسها الله – والذي نوصيكم به تقوى الله تعالى والعمل بطاعته والاستعانة به والتّوكّل عليه»[20].

إلى أن يقول: «وهذا الفتح – وفّقكم الله وأعانكم – وإن كان عظيماً في نفسه، عالياً في جنسه، فإنّه للفتوح الآزفة مفتاح، وبين يدي السّعي فيها مصباح؛ وإنّه رائد الفتوح المنتظرة، وعنوان الخيرات الميسّرة، ونازلٌ من الفتوح الآتية بمحلّ الباكر من الثّمرة، لما أشرب فيه أولياء الله وأنصار الحقّ وجنود الأمر وحماة الإسلام وأحزاب الدّين من ريح الفتح وجدّوا من عزّ الغلب، وتذلّل لهم من مركب الرّوم، إذ عرفوا ذوقهم، وساقوا سوقهم، ولم يبق لهم في نفوسهم مقاومة ولا محلّ مراقبة، ولما خامر الرّومُ – قصمهم الله – من الرّعة والرّوع وانفتح عليهم من أبواب الخطوب وتوجّه إليهم من جنود الرّعب ... فإنّهم بعد أولئك الهلكى المطرّحين بمنزلة الرّمح بعد السّنان، والجسد بعد الجنان»[21]

وممّا لا شكّ فيه أنّ رسائل القالميّ أكثر من ذلك، فقد كان رئيساً لديوان الإنشاء، وهي مكانة لا يصل إليها إلّا من كان ذا دراية بأصول الكتابة الدّيوانيّة، وإلّا لما كان ليستدعيه ابن عبد المؤمن إلى جانب كتاب الكتّاب المغاربة، سيما وأنّه ذو تجربة في الكتابة، إذ رأينا رسالته التي أنشأها في حضرة الحمّاديّين، وبذلك يكون قد خدم عبد العزيز ابن المنصور وابنه يحيى أي في أوائل القرن السّادس الهجريّ، ونحن نعرف أنّ يحيى قد خلف أباه بعد وفاته سنة 515هـ/1121-1122م على قول ابن خلدون، أو سنة 518هـ/1124-1125م على قول ابن عذارى.

ومن رسائل القالميّ تلك كتبها عن الخليفة يوسف إلى الطّلبة الغزاة بإفريقية، كتذكير بما سبقها من رسائل في شأن مواجهة الغزو التي يقوم بها البدو من عرب إفريقية حينما كان أبو زكريا والياً عليها، والرّسالة مؤرّخة بغرّة رجب عام 564هـ، والتي منها قوله: «إنّا كتبنا إليكم – أدام الله عزّكم وكرامتكم بتقواه – من حضرة مراكش – حرسها الله – والذي نوصيكم به تقوى الله والعمل بطاعته والاستعانة به والتّوكّل عليه والذّؤُب على المساعي الحميدة المزلفة لديه، والجدّ في الأعمال الصّالحة المقرّبة منه المدنية إليه، المقتضية استصحاب إفضاله وامتنانه، المديمة ما ارتهن لديكم من جميل عوايده وجزيل إحسانه، الموجبة لكم رضاه عاجلاً وآجلاً، المستدرّة عهاد كرمه وابلاً فوابلاً، المفضية بكم إلى سَنن الهدى ونهجه، الحاملة على كاهل السّداد وثبجه، الصّاعدة بكم في مراقي النّجح ودرجه ...»

2-2 أبو الفضل ابن محشرة:

يعتبر ابن محشرة من أبرز كتّاب الإنشاء الجزائريّين الذين وظّفهم خلفاء الموحّدين، ويظهر – من خلال رسائله المنشورة – كاتباً متمرّساً عارفاً بفنون الإنشاء، مطّلعاً على مجريات الأحداث في المغرب والأندلس، ويعود أصله إلى بجاية، حيث ولد عام 540هـ أو قبلها بمنطقة آشير من قلعة بني حمّاد، ولا نعرف عن عائلته سوى أنّه كان من بيت علم وجلال، وأنّ أباه كان قاضياً ببجاية، وقد تتلمذ على يد أبي القاسم القالمي المذكور، وانفرد ابن الزّبير عن سائر المترجمين لأبي الفضل بقوله: «روى عن أبي بكر بن غالب بن عطيّة[22]، وأبي بكر بن سابق[23]، وأبي محمّد التّامقلق، وروى عنه ابن أخته القاضي أبو عبد الله»[24]

وصفه الغبرينيّ بقوله: «ومنهم الشّيخ الفقيه الجليل العالم الصّدر النّبيل النّبيه الذّكيّ السّنيّ القدر، الكاتب البارع أبو الفضل ابن محمّد بن عليّ بن طاهر بن تميم القيسيّ، من أهل بجاية، وأصله قد اشتهر، ويعرف بابن محشرة، يكنّى أبا الفضل وأبا العلى، كان أبوه قاضياً ببجاية[25]، له علم متّسع المدى، وتخصّص ووقار بما سبيله فيما يقتدى، كان متمكنّ المعرفة، حسن الشّارة والصّفة، له الهمّة السّنيّة، والأخلاق المرضيّة، وكان وجيهاً مكرّماً ومشرّفاً معظّماً، استدعاه الخليفة ابن عبد المؤمن إلى حضرتهم بمراكش، فارتحل من بجاية وهو كاره لارتحاله، مع علمه أنّه استدعاه لمنصب يسمو به على أمثاله، ولكنّ عزة العلم أغنته عن النّاس، وحصلت له من المزيّة في الأنفس أزيد مما يقاس[26].

ومن المعلوم أنّ هذا الخليفة الموحّديّ قد استشعر مهنة الكتابة في هذا العهد الذي بدأ يشهد عدّة ثورات، إضافة إلى عمليّات الفتح ومجابهة الصّليبيّن، خصوصا وأنّ الدّولة الموحّديّة لم تبسط نفوذها بعد على ربوع البلاد الأندلسيّة، بالإضافة إلى أنّ الخليفة لابدّ له من وزراء ومستشارين وكتّاب؛ يستعين بهم في تسيير أمور الخلافة، والحقيقة أنّ وظيفة الكتابة معروفة في الخلافة الإسلاميّة بصفة عامّة، بما في ذلك الخلافة الأمويّة في الأندلس وصولا إلى المرابطين.

ويذكر الغبرينيّ السّبب الذي من أجله تمّ استدعاء ابن محشرة؛ وهو أنّ كاتب سرّ الخليفة في ذلك الزّمان توفيّ، واهتمّ أمير المؤمنين لذلك غاية الاهتمام، وكان مسعود بن سلطان الرّياحيّ المعروف بمسعود البلطيّ[27] وفد على أمير المؤمنين من هذه البلاد، وكانت له عنه مزيّة، وكان يحضر معه أكثر الأوقات في الخلوات، قال: فدخلت عليه يوماً فوجدته مغتمًّا، وقد ظهر التّغيّر في وجهه، فقلت له: يا سيّدنا يا أمير المؤمنين، ما الذي أهمّكم لا أهمّكم الله؟ فقال لي: إنّ كاتب سرّنا فلاناً قد مات، وقد احتجنا إلى من نقيمه مقامه وما وجدنا؛ لأنّه يُحتاج في كاتب السّرّ أن يكون على صفة كذا وعلى نعت كذا، فقلت له: بشراك يا سيّدنا يا أمير المؤمنين، هذا الرّجل ببجاية، أبو الفضل بن محشرة، ووصف له من صفاته ما وقع منه موقع القبول ...[28]

ولما مثل بين يدي الخليفة أكرمه ورفع منزلته، غير أنّ الحسّاد حاولوا تعكير صفو هذه العلاقة، حين اتّهموا ابن محشرة بالتّقاعس عن المجيء فور استدعاء الخليفة له، والتّأخّر عن تلبية ندائه، وعندما واجهه الخليفة معاتباً أجابه مشيّهاً إتيان الخليفة بإتيان الصّلاة قائلاً: «يا أمير المؤمنين، أنت إمام المسلمين، وما أحسب أنّ محلّ الإمامة إلّا كمحلّ الصّلاة، فكما آتي إلى الصّلاة

آتي إل هذا المحلّ، وقد قال رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم –: إذا أقيمت الصّلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون و[لكن] ائتوها تمشون وعليكم السّكينة، فما أدركتم فصلّوا، وما فاتكم فأتمّوا"[29] فاستحسن الخليفة ذلك منه، وعظمت منزلته في نفسه»[30]

كما يذكر المرّاكشيّ أنّ أبا الفضل ظلّ كاتباً – بعد وفاة– يوسف بن عبد المؤمن – لولده يعقوب، وقد جمع أبو الفضل جعفر هذا إلى براعة الكتابة سعة الرّواية وغزارة الحفظ وذكاء النّفس[31]

أمّا فيما يخصّ الرّسائل التي أوردها له بروفنصال في مجموع الرّسائل الموحّديّة فعددها 9 كما يلي:

الرّسالة السّادسة والعشرون: عن الأمير يوسف بن عبد المؤمن إلى الطّلبة والموحّدين والشّيوخ والأعيان والكافّة بقرطبة في نصف شوّال 586 يخبرهم بارتحال رياح من عرب إفريقية إلى الأندلس برسم الجهاد بالعدوة الأندلسيّة[32]، والملاحظ أنّ هذه الرّسالة تؤكّد مشاركة القبائل العربيّة في الجهاد كما ذكر ابن خلدون[33]

يقول ابن محشرة: « ... وخلال ذلك جُمع أشياخ العرب وأعيانهم والمشار إليهم من رؤسائهم ووجوههم وكبرائهم من جميع قبائل رياح – وفّقهم الله – فذكّروا بحقوق هذا الأمر العظيم وآلائه الجزيلة ومننه الجسام، ونبّهوا على ما كان لسلفهم من العرب من كريم السّوابق في أوّل الإسلام، وأنّ الله قد وعد هذه الطّائفة المنصورة أن تملك العرب كما بشّر به المصطفى – عليه أفضل الصّلاة والسّلام، وحرّضوا على أن يكون لهم في نصر هذا الدّين ما كان لسلفهم القديم من الآثار الكرام ...»[34]

والملاحظ أنّها الرّسالة الوحيدة ضمن "رسائل ابن محشرة التي نشرها بروفنصال" عن الأمير يوسف، فبعد وفاته كتب أبو الفضل لابنه الخليفة يعقوب المنصور، وهذا ما يتّضح من الرّسالة الموالية وهي الرّسالة السّابعة والعشرون ضمن المجموع:

الرّسالة السّابعة والعشرون: عن الأمير يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن إلى الطّلبة والموحّدين والشّيوخ والأعيان والكافّة بغرناطة في 7 جمادى الأولى 580 يخبرهم ببيعته ويدعوهم إلى اشتراكهم فيها[35]. منها قوله: «ولما تحقّق منهم خلوص الضّمائر، واستواء البواطن والظّواهر، واستحكام النّيّات فيه والبصائر، أسعفوا بمطلوبهم، ومكّنوا من مرادهم ومحبوبهم، وأُحضروا لأخذ البيعة عليهم أفواجاً، وسلكوا من الطّاعة الصّادقة سبلاً فجاجاً، واقتفوا في ذلك من آثار هذا الأمر العظيم جوادّ قاصدة ومنهاجاً، وبادر الموحّدون وغيرهم – وفّق الله جميعهم – إلى البيعة وسارعوا، وترادف النّاس بعدهم وتتابعوا، وأعطى الجميع صفقة أيديهم بإخلاص من سرائرهم وبايعوا، والتزموا فروض البيعة بشروطها وقيودها، ووقفوا عند رسومها المعلومة وحدودها»[36]

وتعود أهمّيّة الرّسالة في تصحيح تاريخ وفاة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بن عليّ، فقد ذكر "ابن عذارى" و"النّويريّ" و"ابن أبي زرع"، و"ابن الخطيب"، و"الزّركشيّ" أنّ وفاة الخليفة يوسف كانت يوم السّبت الثّاني عشر من شهر ربيع الأوّل، وصحب ابن محشرة الخليفة يوسف أثناء جهاده بمنطقة شنترين وكتب هذه الرّسالة في بيعة المنصور في السّابع من جمادى الأولى، أي بعد وفاة الخليفة يوسف بخمسين يوماً، وهو ما يؤكّد الخطأ الذي وقع فيه "المراكشيّ" صاحب "المعجب"، حيث ذكر أنّ الوفاة كانت في السّابع من شهر رجب، وعنه نقل ابن خلّكان.

الرّسالة الثّامنة والعشرون: عن الأمير يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن إلى الطّلبة والموحّدين والشّيوخ والأعيان والكافّة بإشبيلية في عقب رمضان 580 يأمرهم بقطع شرب الرّبّ وبيعه ودفع زكاة الفطر للقاضي أبي المكارم ليوزّعها على الضّعفاء[37]. وهي من رسائل الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وكانت الرّسالة الجامعة لأنواع الأوامر و"رسالة الفصول" لأبي جعفر بن عطيّة نموذجاً لكتابة هذا النّوع من الرّسائل، مع تغيير التّاريخ وأسماء الشّخصيّات، ويحتفظون بالشّكل، وهو من تنبّه له بروفنصال[38]

ومنها قوله: «فإنّ النّاس تجوّزوا في أمر الرُّبّ تجوّزاً أغفلوا فيه الاجتهاد، ورتعوا حول حماه رتعاً أوقعهم فيه أو كاد، وتسامحوا فيه تسامحاً خرق المتعارف من المأذون فيه والمعتاد، وحاول اتّخاذه وبيعه من لا يتوقّف على احترام، ولا يتخوّف بما يكتسب من آثام، ولا يقف عند قوله – عليه السّلام –: ما أسكر كثيره فملء الكفّ منه حرام، ولم يزل الاشتداد في هذا الأمر القائم بالحقّ،

النّاظر في مصالح الخلق، يتناولهم بأبلغ الزّجر والقمع، والاحتساب أبداً يتخوّلهم بأتمّ القهر والمنع، والقتل في كلّ حين يأخذهم بأشدّ الكفّ والرّدع ... فإذا وافاكم كتابنا هذا بحول الله – عزّ وجلّ – فاقطعوه جملة وتفصيلاً، ولا توجدوا أحداً إلى بيعه سبيلاً، واشتدّوا في ذلك اشتداداً لا يوسع مستسمحاً فيه صُدوفاً عن هذا القصد الحميد ولا عدولاً، وأخلوا الحوانيت التي كان يباع فيها منه وأفقروها، وأصرفوها لغير ذلك من المباحات وصيّروها»[39].

الرّسالة التّاسعة والعشرون: عن الأمير يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن إلى الطّلبة والموحّدين والشّيوخ والأعيان والكافّة بإشبيلية في 5 ربيع الثّاني 581 يخبرهم بغزوة الموحّدين على عليّ بن غانية[40] وفتح مدينة بجاية[41].

الرّسالة الثّلاثون: عن الأمير يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن إلى الطّلبة والموحّدين والشّيوخ والأعيان والكافّة بمرّاكش في 18 شعبان 583 يخبرهم بهزيمة بني غانية بحمّة مطماطة وبفتح مدينة قاب[42] فبعد خروج الميورقيّين من جزيرتهم، اتّجهوا إلى بجاية، فلمّا لحق بهم جيش الموحّدين بقيادة الطّلبة، فرّت عائلة الميورقي إلى إفريقية بتونس، واختارت المنطقة الصّحراويّة منزلاً لها، واعتدت على أهل تلك المنطقة، واستولت على زرعهم، وعندما وصل الموحّدون تمّ القضاء على بعض المتمرّدين، فاتّجه الباقون إل قابس، بينما اتّجه الجيش إلى القيروان ثمّ قابس، حيث نشبت المعركة التي انهزم فيها الميورقيّون والغزّ[43].

الرّسالة الحادية والثّلاثون: عن الأمير يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن إلى الطّلبة والموحّدين والشّيوخ والأعيان والكافّة بتونس في 2 رمضان 583 يخبرهم بدخول أهل الجريد تحت طاعة الموحّدين وبحصار مدينة قفصة[44]. واستهلّ ابن محشرة رسالته مذكّراً الموحّدين بانتصار جيشهم في مناطق إفريقية، واستيلائه على مدينة قابس ومغادرته إيّاها متّجهاً نحو المناطق الصّحراويّة بنواحي الجريد، التي تقع بمنطقة نائية لم تطأها أقدام الجيش الموحّديّ من قبل الانعدام الماء بها.

الرّسالة الثّانية والثّلاثون: عن الأمير يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن إلى الطّلبة والموحّدين والشّيوخ والأعيان والكافّة بمرّاكش في 13 ذي القعدة 583 يعرّفهم بفتح مدينة قفصة[45]. ولما تيقّن أهل قفصة من تمكّن الجيش الموحّديّ منهم طلبوا الأمان، وقفل الخليفة راجعاً إلى مرّاكش مصحوباً بمجموعة من الغزّ التّركمان.

الرّسالة الثّالثة والثّلاثون: عن الأمير يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن إلى الطّلبة والموحّدين والشّيوخ والأعيان والكافّة بمرّاكش في 10 ربيع الأوّل 584 يخبرهم برجوعه من إفريقية إلى المغرب الأقصى[46]. والملاحظ أنّ هذه الوثيقة التي جاءت لتحمل نتائج الرّحلة ونجاحها تحمل التّاريخ الدّقيق لاستيلاء الجيش الموحّديّ على بلاد المغرب الأدنى وعودة المجاهدين إلى مقرّهم بمراكش.

الرّسالة الرّابعة والثّلاثون: عن الأمير يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن إلى الطّلبة والموحّدين والشّيوخ والأعيان والكافّة بسبتة في 26 جمادى الآخرة 586 يخبرهم بغزوته بغرب الأندلس وأخذ بعض حصون من أيدي النّصارى.[47] فاستقرّ جند الموحّدين وإخوانهم العرب، واتّجه نحو جزيرة الأندلس دون أن ينتظر وصول الوفود التي لبّت نداء الجهاد، وأمر الخليفة طلبة سبتة أنّه عزم على الجهاد، لأنّ ملك قشتالة ألفونسو الثّامن بعث إليه كتاباً يطلب منه إبرام اتّفاقية سلم بينهما، وأنّه مستعدّ لمحاربة النّصارى في مقابل ذلك.

3 – رسائل القالمي وابن محشرة – دراسة فنّيّة –

لا يختلف البناء الفنّي لرسائل القالمي وابن محشرة عمّا اعتاده كتّاب الإنشاء المغاربة والأندلسيّين في عهد الموحّدين، إذ نجدها تتشابه في فواتحها وخواتمها، بل وفي عرض موضوعاتها، مع توظيف عبارات وألفاظ توارثها اللّاحق عن السّابق، وسنقوم بدراسة ذلك انطلاقا من نماذج مختارة من رسائل الكاتبين، والإشارة إلى مسألة الاقتباس والتّضمين.

أوّلا: الافتتاح

يذكر القلقشندي أنّ الرّسائل الصّادرة عن خلفاء الموحّدين على أسلوبين: «الأسلوب الأوّل: أن تفتح المكاتبة بلفظ من فلان إلى فلان، وكان الرّسم فيها أن يقال: من أمير المؤمنين فلان (ويدعى له بما يناسبه) إلى فلان (ويدعى له بما يليق به)، ثمّ يؤتى بالسّلام، ثمّ يؤتى بالبعديّة والتّحميد، والصّلاة على النّبيّ، صلّى الله عليه وسلّم، والتّرضية عن الصّحابة، ثمّ عن إمامهم المهديّ[48]، ثمّ يؤتى على المقصود ويختم بالسّلام والخطاب فيه بنون الجمع عن الخليفة، وميم الجمع عن المكتوب إليه ... وأمّا الأسلوب الثّاني، فيجري مجرى الأوّل على أن يفتتحه الكاتب بلفظ "أمّا بعد"»[49]

وهو ما ذهب إليه بعض الدّارسين المحدثين، أثناء حديثهم عن فن الرّسائل في العهدين المرابطي والموحّديّ، حيث يقول القيسيّ عن بناء الرّسالة المرابطيّة: «لم يحتفل الكتّاب الأندلسيّون احتفال المشارقة بمطالع الرّسائل وخواتيمها، ولهذا اتّخذت في بنائها شكلاً فنّيًّا جديداً ... فصارت رسائلهم – على اختلاف موضوعاتها وأغراضها تخلو في الغالب من الاستفتاح المعروف، وتبدأ بالدّعاء للمرسل إليه، أو بالمنظوم أو بالدّخول في الموضوع مباشرة ... ولا يجد الباحث لبعض الرّسائل مقدّمة أو تمهيداً، وخاصّة في المراسلات بين المسيحيّين والصّليبيّين، وإنّما تقتصر على عبارة من فلان إلى فلان»[50]

وإذا تأمّلنا رسائل القالميّ وابن محشرة من حيث الفواتح نجدها تتضمّن العناصر الذي ذكرها القلقشندي، وفق الأمثلة الموالية:

الرّسالة الحادية والعشرون من مجموع الرّسائل الموحّديّة للقالميّ

ذكر المرسل والمرسل إليه	من أمير المؤمنين – أيّده الله بنصره وأمدّه بمعونته – إلى الطّلبة والشّيوخ والأعيان والكافّة من الموحّدين من أهل فاس – أعزّهم الله بتقواه، وأدام كرامتكم بحسناه –
البعديّة	أمّا بعد
التّحميد	فالحمد لله الذي تمّم مقاصد أوليائه فيما اعتمدوه من إقامة أمره الواجب ...
الصّلاة على الرّسول – صلّى الله عليه وسلّم	والصّلاة على محمّد عبده ورسوله الحاشر العاقب، الصّادع بنوره الثّاقب، لبابة الانتخاب، وسلالة الانتجاب ... وعلى آله وصحبه أولي العزم ...

الرّسالة الثّانية والعشرون من مجموع الرّسائل الموحّديّة للقالميّ، وهي عن الخليفة عبد المؤمن ابن علي مخبراً بهزيمة النّصارى في نواحي قرطبة، والملاحظ أنّها مبتورة لأنّها لا تتضمّن المرسل والمرسل إليه، ولا عبارة "أمّا بعد"

ذكر المرسل والمرسل إليه	.....
البعديّة	.....
التّحميد	الحمد لله الذي قدّم لأوليائه أمره فيما يرومونه من تدويخ العدوّ ...
الصّلاة على الرّسول – صلّى الله عليه وسلّم	وصلّى الله على نبيّه المصطفى محمّد الهادي إلى سبل السّلام ترغيباً وترهيباً؛ وعلى آله وصحبه، ومن لبّ دعوته إلى ربّه سامعاً مجيباً

الرّسالة السّابعة والعشرون من مجموع الرّسائل الموحّديّة لأبي الفضل ابن محشرة

ذكر المرسل والمرسل إليه	من الأمير يعقوب بن سيّدنا أمير المؤمنين بن سيّدنا أمير المؤمنين – أيّدهم الله بنصره، وأمدّهم بمعونته – إلى الطّلبة والأشياخ والأعيان والكافّة بغرناطة
البعديّة	أمّا بعد
التّحميد	فإنّا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلّا هو، ونشكره على آلائه ونعمه

الصّلاة على الرّسول – صلّى الله عليه وسلّم	ونصلّي على محمّد نبيّه المصطفى ورسوله ...

الرّسالة الثّلاثون من مجموع الرّسائل الموحّديّة لابن محشرة

ذكر المرسل والمرسل إليه	من أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين – أيّدهم الله بنصره، وأمدّهم بمعونته – إلى الطّلبة والموحّدين والأشياخ والأعيان والكافّة بمرّاكش
البعديّة	أمّا بعد
التّحميد	فإنّا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلّا هو، ونشكره على آلائه ونعمه
الصّلاة على الرّسول – صلّى الله عليه وسلّم	ونصلّي على سيّدنا محمّد نبيّه المصطفى ورسوله ...

الرّسالة الثّالثة والثّلاثون من مجموع الرّسائل الموحّديّة لابن محشرة

ذكر المرسل والمرسل إليه	من أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين – أيّدهم الله بنصره، وأمدّهم بمعونته – إلى الطّلبة والموحّدين والأشياخ والأعيان والكافّة بمرّاكش
البعديّة	أمّا بعد
التّحميد	فإنّا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلّا هو، ونشكره على آلائه ونعمه
الصّلاة على الرّسول – صلّى الله عليه وسلّم	ونصلّي على سيّدنا محمّد نبيّه المصطفى ورسوله ...

ثانياً: العرض

العرض هو المقصود من الرّسالة، ويكون بعد الافتتاح وقبل الخاتمة، وفيه يقوم الكاتب بتفصيل الموضوع المراد إيصاله إلى المرسل إليه، وهو يأخذ حيّزاً هامّا من حجم الرّسالة، قد يكون بضع صفحات وقد يتعدّى ذلك – على حسب طبيعة الموضوع – وفيه تظهر براعة الكاتب في الاقتباس والتّضمين، في الإيجاز والإطناب، في الإقناع والحجاج، وغير ذلك من الأساليب الأدبيّة التي تميّز فن الرّسالة الدّيوانيّة.

ففي رسالة القالميّ (الرّسالة 21 من مجموع رسائل موحّديّة)، نجده يتحدّث إلى طلبة فاس يعلمهم بهزيمة عرب إفريقية ودخولهم تحت طاعة الموحّدين، نجد العرض يأخذ حيّزاً يمتدّ ضمن سبع صفحات (من 114 إلى 120)، وقد وظّف الكاتب العبارات المألوفة: وإنّا كتبناه إليكم –كتبكم الله ممّن تعرّف آلاءه المستعادة –، وقد كنّا – أعزّكم الله بتقواه – وفّقكم الله – ...

ولا تختلف الرّسالة الثّانية للكاتب نفسه (الرّسالة 22 من مجموع رسائل موحّديّة)، عن سابقتها إلّا في الموضوع، فهي تتحدّث عن هزيمة النّصارى بنواحي قرطبة، وفيها عبارات مثل: وإنّا كتبناه إليكم –كتبكم الله ممّن أحسن تلقّي البشائر، ووفّى النّعمة حقّها من شكر الشّاكر –، وقد كان مقامنا بهذه الجزيرة – مهّدها الله – ولما اتّصل بنا نبؤهم الذّميم – إخواننا وأشياخ الموحّدين – أعزّهم الله –، – أعانهم الله –، وهذا الفتح – وفّقكم الله وأعانكم – الرّوم – قصمهم الله – ..

وإذا كانت النماذج قليلة بالنّسبة لرسائل القالميّ، فإنّها أكثر نسبيّا فيما يتعلّق بتلميذه ابن محشرة، وقد تعدّدت موضوعاتها وأحجامها، حيث أنّنا نجده يكتب رسائل الجهاد، ورسائل البيعة، ورسائل الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وجميعها عن الخليفة يعقوب المنصور، باستثناء الرّسالة 26 عن سلفه ووالده يوسف بن عبد المؤمن، وعلى العموم فهي لا تختلف في أسلوبها عمّا ألفه

كتّاب الإنشاء لدى المرابطين والموحّدين (إذا ما اعتبرنا أبا جعفر بن عطيّة نموذجاً قلّده من جاء بعده من الكتّاب المترجم لهم آنفا، بما في ذلك القالمي وابن محشرة)

وإجمالاً، فإنّ ابن محشرة غالباً ما يوظّف العبارات المألوفة: وكتابنا إليكم –كتب الله لكم ... – وقد انتهى إليكم – وفّقكم الله – الموحّدون – أعزّهم الله – وكان ممّن حضر – وفّقكم الله وأكرمكم بتقواه – أدام الله كرامتهم بتقواه، وعرّفهم عوارف نعماه ورحماه – من حضرة إشبيلية – حرسها الله – وفّقكم الله وسدّدكم – أيّدكم الله بنصره – أعلى الله أمره، وأعزّ نصره – وفّقكم الله وأعانكم على اكتساب رضاه – وقد علمتم ... أنجدهم الله ...

ثالثاً: الختام

اهتمّ كتّاب الإنشاء في الدّولة الموحّديّة بخواتم الرّسائل اهتمامهم بافتتاحياتها، فبعد عرض الموضوع وتفصيله بما يمكّن المتلقّي من فهمه على الوجه المراد، ينتقل الكاتب إلى الخاتمة، وهي عادة ما تكون نصحاً أو توجيها، أو دعاءً، أو غير ذلك ممّا العبارات المؤكّدة للعواطف والأفكار التي جاءت في صلب الرّسالة، ومن صور الختام في رسائل القالمي وابن محشرة نذكر:

- فبشراكم اليوم بشراكم وما أحلقكم به وأجراكم، فاشرحوا – اعزّكم الله – صدوركم، وأقيموا بهذه البشائر أموركم، وأشعروا بها جمهوركم، وأعقدوا بإهدائها جذلكم وسروركم، والله تعالى يجعلكم ممّن اعتمد النّعم ببشكرها، ووفّاها واجب قدرها، وارتبط كرائمها بمواصلة ذكرها، إن شاء الله، والسّلام عليكم ورحمة الله وبركاته[51]
- والله تعالى يشفعه بأمثاله، ويردفه بمنهل الفتح ومثاله ويتولّى توفيقكم لما يحبّ ويرضاه، وعونكم لما يزلف لديه في أخراه، بمنّه وبمنه[52].
- والله يوليكم من رحمته ونعمته، ما يعمّ به ملأكم، ويكرم به متبوّأكم، بمنه، لا ربّ غيره وهو حسبنا ونعم الوكيل، والسّلام عليكم ورحمة الله وبركاته[53].
- أدام الله كرامتكم بتقواه – استدعت هذه الحالة التي عرّفتم بها أن يزاد في الخطبة الزّيادة التي اشتمل المدرج في طيّ هذا الكتاب؛ فضعوها في موضعها منه، واكتبوا بنسخها إلى جميع جهاتكم إن شاء الله، والسّلام عليكم ورحمة الله وبركاته[54].
- والله يوفّقكم من ذلك إلّا يقتضي نجاح إيرادكم وإصداركم، بمنّه وكرمه، لا ربّ غيره، والسّلام العميم عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته[55].
- وعرّفناكم – وفّقكم الله – بهذه الفتوح الجمّة التي عظمت قدراً، وأعجزت حمداً وشكراً، وخرقت العوائد تسهّلاً غريباً ويسراً، لتضربوا بقداح المساهمة فيها، وتذيعوها في أداني جهاتكم وأقاصيها، وتجدّدوا حمد مخوّلها – جلّت – ومولّيها، وتقوموا بالواجب من شكر مسبّبها سبحانه ومستّيها؛ والله تعالى يعينكم من ذلك على ما يتكفّل لكم بتضاعف نعمه عليكم وتواليها، بمنّه وجوده، لا ربّ غيره، والسّلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته[56].
- والله تعالى يحوط الكافّة بنظر هذا الأمر الشّامل الكامل، لا ربّ غيره، والسّلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته[57].
- والله يعينكم من موالاة حمده، على ما يجزل حظوظكم من رفده، ويهديكم إلى اتّباع سبيل رضاه وانتهاج قصده، بكرمه وجوده ومجده؛ لا ربّ غيره، والسّلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته[58].
- وعرّفناكم – وفّقكم الله – بهذه المسرّات الكُبر، والآيات الواضحة الحُجول والغرر، لتأخذوا بحظّكم من سرورها، وتفيضوا بقدحكم من حمدها وشكورها، وتشاركوا بشكرها ونشرها في جسيم حظوظها وكريم أجورها؛ والله يجعلكم من

المتحدّثين بنعمه، الشّاكرين لآلائه وقسمه، المستمدّين بحمده سبحانه درور جوده وكرمه، بمنّه وفضله، لا ربّ غيره، والسّلام الكريم عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته[59].

كما تتضمّن الرّسائل الموحّديّة في غالبها الأعمّ ذكر المكان الذي كتبت فيه إضافة إلى التّاريخ (اليوم – الشّهر – السّنة)، وهو ما نلمحه في الرّسالة الحادية والعشرين من مجموع الرّسائل الموحّديّة لأبي القاسم القالميّ، حيث ختمها بقوله:

- كتب من فحص متّيجة يوم الإثنين الرّابع والعشرين من ربيع الآخر سنة خمس وخمسين وخمسمائة[60].

بينما لا نجد ذكراً لذلك في الرّسالة الثّانية والعشرين من مجموع الرّسائل الموحّدية وهي من إنشاء القالمي أيضاً، أمّا بخصوص الرّسائل التّسعة المذكورة لأبي الفضل ابن محشرة فإنّها جميعها مختومة بذكر التّاريخ، وفق الجدول الموالي:

الرّسالة 26	كتب منتصف شهر شوّال سنة ستّ وسبعين وخمسمائة[61]
الرّسالة 27	كتب في السّابع من جمادى الأولى عام ثمانين وخمسمائة[62]
الرّسالة 28	كتب عقب شهر رمضان سنة ثمانين وخمسمائة[63]
الرّسالة 29	كتب في الخامس من شهر ربيع الآخر سنة إحدى وثمانين وخمسمائة
الرّسالة 30	ونفّذ من نفزاوة –كلأها الله – في الثّامن عشر من شعبان المكرّم سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة[64]
الرّسالة 31	كتب في الثّاني من شهر رمضان المعظّم سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة[65]
الرّسالة 32	كتب في الثّالث عشر من ذي القعدة سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة[66]
الرّسالة 33	كتب في العاشر من شهر ربيع الأوّل سنة أربع وثمانين وخمسمائة[67]
الرّسالة 34	كتب في السّادس والعشرين من جمادى الأخرى سنة ستّ وثمانين وخمسمائة[68]

الاقتباس والتّضمين

احتلّت ظاهرة الاقتباس من القرآن الكريم حيّزاً كبيراً من الرّسائل الدّيوانيّة الموحّديّة إذا ما قورنت بالأحاديث والأبيات الشّعريّة، والأمثال، فلا نجد رسالة موحديّة إلّا وقد اقتبس كاتبها آية أو أكثر أو أشار إليها بطريقة غير مباشرة، حيث يدمجها في كلامه، بذكر بعض ألفاظها ومعانيها في محتوى العلامة بتصرّف منه[69]، ويجعلها مواتية لسياق كلامه، فاستحضار الآيات المناسبة لموضوع الرّسالة له وقعه لدى المتلقّين

من ذلك ما جاء على لسان أبي القاسم القالميّ في الرّسالة الحادية والعشرين من مجموع الرّسائل الموحّديّة في قوله: «وابتغوا رضوان الله والله ذو الفضل العظيم» حيث نجده يقتبس قوله تعالى من سورة آل عمران: ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾[70]

كما نجد تناصًّا غير مباشر في قول القالمي في الرّسالة نفسها: «فمن شرُح للإيمان صدره، وأذن بشمس الهداية فجره، وأتيح له بعد عسره ويسره، انخلع من ملابس ذنبه، واستند إلى ذروة قربه، وكان على نور من ربّه؛ ومن صمّ صداه، واشترى الضّلالة بهداه، تُبّت يداه، وأُرصد له بأخذ الله الأليم الشّديد، وعقابه الذي ليس على الظّالمين ببعيد، حينه وراده، وأورد ولات حين مصدر موارد لا يتعدّاها ما لاح ابنا سمير ولا تتعدّاه»[71]

ففي الفقرة السّابقة نجد استحضاراً للعديد من الآيات ببعض ألفاظها، ويمكن إجمالها فيما يلي:

﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ﴾[72]

﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾[73]

﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ﴾[74]

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾[75]

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[76]

﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[77]

﴿سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[78]

وفي قوله في الرّسالة نفسها: «أينما ثقفوا أخذوا وقتّلوا تقتيلاً، سنّة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنّة الله تبديلاً؛ حقّت عليهم الصّيحة فأصارتهم هبًّا منثوراً، وضربت عليهم الذّلّة بكلّ مضطرب وملتمس من تقرّيها لثارهم، وجوسها بخلال ديارهم» نجد تناصًّا واضحاً مع عدد من الآيات، وهي:

قوله تعالى: ﴿مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا﴾[79]

وقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[80].

وقوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ۚ﴾[81]

وقوله تعالى: ﴿فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ۚ﴾[82]

وفي الرّسالة الثّانية للقالمي (22 ضمن المجموع) نجد اقتباساً غير مباشر في قوله: «الحمد لله الذي قدّم لأوليائه أمره فيما يرومونه من تدويخ العدوّ وقهره يوماً على الكافرين عصيباً ... ووعد القائمين بدعوته، النّاصرين لملّته، فتوحاً آزفة يفتحونها، ومغانم كثيرة يأخذونها، فعجّل من دون ذلك فتحاً قريباً»[83]، فالقالمي يستحضر قوله تعالى: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾[84]

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا(18) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[85].

وفي رسالة ابن محشرة الثّانية (27 من المجموع) نجد تناصًّا من القرآن الكريم في قوله: «وأحضروا لأخذ البيعة عليهم أفواجاً، وسلكوا من الطّاعة الصّادقة سبلاً فجاجاً، واقتفوا في ذلك من آثار هذا الأمر العظيم جوادّ قاصدة ومنهاجاً»[86] باقتباس قوله تعالى: ﴿لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾[87].

وفي الرّسالة 29 يقول ابن محشرة: «... وتورّط فيما أحاط به مكره السّيّء من [كذا] عن يمينه وشماله وأمامه وخلفه، وكفر بأنعم الله فذاق لباس جوعه وخوفه» ما يبرز التّناص مع الآيتين:

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ﴾[88]

وقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[89].

وفي الرّسالة الثّلاثين لكاتبها ابن محشرة يقول: «ولم يعلموا أنّ عصا التّوحيد تلقف ما يكون من سحرهم»، وهو اقتباس لقوله تعالى في قصّة سيّدنا موسى عليه السّلام مع السّحرة، قال تعالى:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾[90].

وقوله تعالى:

﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾[91].

كما نلاحظ أنّ ابن محشرة قد استوحى مفردات من "سورة الشّمس" في الرّسالة السّادسة له (31 من المجموع)، وذلك في قوله: «والحمد لله الذي واتر لهذه الدّعوة العليّة فتوحه السّنيّة ووالاها، وقرّب لها الآمال القصيّة وأدناها؛ وتمّم عندها نعمه الجمّة ووفّاها، وأجزل عطاياها من منحه الجسيمة وسهّاها، وسهّل لها مراماتها على أفضل ما يتهنّأ متخيّر أن يكون وسناها ... وأذلّ فئتها الخاسرة بأيدي أوليائه المريدين وأخزاها، وأوقفها على عاقبة هلكها ورداها، وروّى من دمائها المسالة قِناها، وحكم في طلاها المذالة صوارمها العضبة وظباها»[92]

هذا عن الاقتباس، أمّا عن التّضمين فهناك أمثلة عديدة لتضمين الأحاديث النّبويّة الشّريفة والأمثال العربيّة القديمة، في الرّسائل الدّيوانيّة الموحّديّة، فلا نكاد نجد رسالة لأبي جعفر ابن عطيّة، أو غيره من كتّاب الإنشاء كأبي الحكم ابن المرخيّ أو أبي الحسن بن عيّاش وغيرهم إلّا وتضمّنت شيئاً من ذلك وما يهمّنا هنا ما ورد في الرّسالتين المنشورتين للقالميّ والرّسائل التّسع لأبي الفضل ابن محشرة، ففي رسالة القالميّ عن الخليفة عبد المؤمن مخبراً بهزيمة النّصارى في نواحي قرطبة (الرّسالة رقم 22): نجد قوله: «واقتُصّوا كذلك تلفظهم الشّواهق، وترديهم المهاوي وينمّ عليهم اللّيل وهو كاتم، ويلْكم لهم الصّبح وهو باسم، ولا تدمّ عليهم غيطلةً ملتفّة، ولا شجرة محتفّة، بل يقول الحجر: يا مؤمن هذا الكافر خلفي فاقتله، وإلى سواء الجحيم فاعتله»[93]

حيث نجد التّضمين جليًّا في استحضار عبارات من حديث أبي هريرة «أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: (لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ، فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى يَخْتَبِئَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ، فَيَقُولُ الْحَجَرُ أَوِ الشَّجَرُ: يَا مُسْلِمُ يَا عَبْدَ اللهِ هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي، فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ، إِلَّا الْغَرْقَدَ، فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُود»[94]

وإذا انتقلنا إلى رسائل أبي الفضل ابن محشرة، فإنّنا نجده قد ضمّن رسائله بعض الأحاديث الشّريفة، وسنورد أمثلة لذلك، ففي الرّسالة رقم 26 من المجموع يقول ابن محشرة: «والصّلاة على نبيّه المصطفى محمّد الصّادق الأمين المختار، المبتعث إلى الأحمر والأسود آخذا بحجرهم عن النّار، المبشّر بأنّ ملك أمّته يبلغ ما زوي له من مشارق الأرض ومغاربها من الأنجاد والأغوار»[95]، إذ نجد تضمينا لحديثين شريفين:

الأوّل: عن جابر بن عبد الله – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم – «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي، كانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إلى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وبُعِثْتُ إلى كُلِّ أَحْمَرَ وأَسْوَدَ ...»[96]

الثّاني: عن ثوبان قال: قال رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم – «إنَّ اللَّهَ زَوَى لي الأرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشارِقَها ومَغارِبَها، وإنَّ أُمَّتي سَيَبْلُغُ مُلْكُها ما زُوِيَ لي مِنْها»[97].

وفي الرّسالة 28 يقول: «ولا يقف عند قوله – عليه السّلام –: ما أسكر كثيره فملء الكفّ منه حرام ... والذي أطلقه هذا الأمر العزيز منه وأجاز فيه مباح البيع والشّراء، ما أنه طبخه غاية الإنهاء، وصيّر جرمه في قوام الطّلاء، كما فعل عمر – رضي الله عنه – اقتداءً بالخلفاء، واهتداءً بالأيمّة الصّلحاء، والصّحابة البررة الأتقياء، وأخذاً بقوله – صلّى الله عليه وسلّم –: "أصحابي كالنّجوم، بأيّهم اقتديتم اهتديتم"[98]» ففي هذا المقطع من الرّسالة نجد تضميناً لحديثين أحدهما صحيح والآخر موضوع لا يصحّ، وسنذكر الأوّل منهما فقط لصحّته:

عن عائشة – رضي الله عنها قالت: قال رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم – «كل مُسكرٍ حرامٍ، ما أَسكرَ الفرقُ منه فملْءُ الكفّ منهُ حرامٌ»[99]

كما نجد في الرّسالة 30 من المجموع، وهي من إنشاء ابن محشرة تضميناً لمثلين عربيّين، حيث يقول: «وقدّروا فكان حتفهم بحول الله في تقديرهم، وتخيّلوا أنّ كلّ بيضاء شحمة وكلّ سوداء تمرة[100]، وتوهّموا أنّ تخييلاتهم الكاذبة تنفعهم كلّ مرّة، وانخدعوا بما أملي ليزدادوا إثماً على إمهال وتبرة، فسقط العشاء بهم على سرحان[101]»[102]

وفي قول ابن محشرة: «ولاقت ريحهم إعصاراً، وصار نبعهم بزعمهم مرخاً وعفاراً[103]، وما زادتهم جموعهم المضلّلة إلّا تباراً، وعاد ما قدّروه من نجاة هلكة وما أمّلوه من ربح خساراً»[104] تضمين للمثل العربي: "إذا كنت ريحاً فقد لاقيت إعصاراً[105]

وفي قول ابن محشرة في رسالته السّابعة (32 من المجموع) نجده يستحضر أبيات للمتنبّي في قوله: «وحكم بإعلاء كلمته في اليفاع الممنع أو توغّل في البيد السّمالق[106]، وحكم صوارمه البتّار في طلى كلّ مازق»[107]

أمّا أبيات المتنبّي فمنها قوله[108]:

سَلِ البيدَ أَينَ الجِنُّ مِنّا بِجَوزِها وَعَن ذي المهاري أَينَ مِنها النَقانِقُ

وَلَيلٍ دَجوجِيٍّ كَأَنّا جَلَت لَنا مُحَيّاكَ فيهِ فَاهتَدَينا السَمالِقُ

فَما زالَ لَولا نورُ وَجهِكَ جُنحُهُ وَلا جابَها الرَكبانُ لَولا الأَيانِقُ

خاتمة

في ختام هذا البحث يمكن القول إنّ كلًّا من القالميّ وابن محشرة قد نال حظوة في بلاط الموحّدين، سيما في عهد عبد المؤمن بن عليّ، وقد أثبتا براعتهما في الكتابة الإنشائيّة، وتركا مجموعة من النّماذج نشرها "بروفنصال" في مجموع رسائل موحّديّة، وغيره، ومن النّتائج المتوصّل إليها:

الرّسالة فنّ من الفنون النّثريّة التي لها بناؤها وخصائصها الفنّيّة، حيث تتضمّن الافتتاح – المقدّمة – المقصد والغاية – الخاتمة.

نشر بروفنصال سبعاً وثلاثين رسالة من إنشاء كتّاب الدّولة المؤمنيّة كتبها كلّ من أبي جعفر وأبي عقيل ابني عطيّة – أبي الحسن بن عيّاش – أبي الحكم المرخيّ – أبي عبد الله بن عيّاش – أبي القاسم القالميّ – أبي الفضل بن محشرة.

يعتبر القالميّ وتلميذه ابن محشرة من كتّاب الإنشاء الجزائريّين الذين شاركوا في الحياة الثّقافيّة في عهد الموحّدين، فالأوّل من قالمة والثّاني من بجاية.

هناك تفاوت في عدد الرّسائل التي نشرها "ليفي بروفنصال" لكلّ منهما فقد كان ابن محشرة أوفر حظًّا حيث نشرت له 9 رسائل في حين نشرت لشيخه القالمي رسالتان فقط، ورغم ذلك فإنّ هناك مصادر أخرى ربّما تكون قد ذكرت لهما رسائل أخرى.

تتشابه رسائل القالمي وابن محشرة في فواتحها وخواتمها، بل وفي عرض موضوعاتها، مع توظيف عبارات وألفاظ توارثها اللّاحق عن السّابق.

تشترك جميع الرّسائل الموحّديّة في ذكر العبارة: "والرّضا عن الإمام المعصوم المهديّ المعلوم"، كما أنّ العلامة السّلطانيّة: "والحمد لله وحده" قد اتّخذها الخلفاء الموحّدون شعاراً لكتبهم الرّسميّة.

من العبارات المشهورة في رسائل الموحّدين قولهم: وقد انتهى إليكم – وفّقكم الله – الموحّدون – أعزّهم الله – وكان ممّن حضر – وفّقكم الله وأكرمكم بتقواه – أدام الله كرامتهم بتقواه، وعرّفهم عوارف نعماه ورحماه – من حضرة إشبيلية – حرسها الله – وفّقكم الله وسدّدكم – أيّدكم الله بنصره.

احتلّت ظاهرة الاقتباس من القرآن الكريم حيّزاً كبيراً من الرّسائل الدّيوانيّة الموحّديّة إذا ما قورنت بالأحاديث والأبيات الشّعريّة، والأمثال.

[1] - محمّد بن تومرت المصموديّ البربريّ (485 – 524هـ / 1092- 1130م): هو محمّد بن عبد الله بن عبد الرّحمن بن هود بن خالد بن تمام، أو محمّد بن عبد الله بن وجليد بن يامصل بن حمزة، وينتهي نسبه إلى الحسن بن عليّ بن أبي طالب – رضي الله عنه – وهو صاحب دعوة السّلطان عبد المؤمن بن علي ملك المغرب، وواضع أسس الدولة المؤمنيّة الكوميّة، من قبيلة هرعة، من جبل السّوس بالمغرب، رحل إلى المشرق طالبا العلم سنة 500هـ، فانتهى إلى العراق، حجّ وأقام بمكّة زمناً، نزل بالمهديّة، وانتقل إلى بجاية، لكنّه أخرج منها إلى ملالة حيث التقى بابن عبد المؤمن القيسيّ، فاتّفق معه على الدّعوة إليه، واتّخذ أنصاراً رحل بهم إلى مراكش، وعبد المؤمن معه، حيث حضر مجلس على بن يوسف بن تاشفين وأنكر عليه بعض البدع ...(ترجمته في: وفيات الأعيان، 37/2 – الاستقصا، 199/1 – ابن خلدون، 225/6 – نظم الجمان لابن القطّان، 37 – الحلل الموشية، 75 -الأعلام، 228/6).

[2] - أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (533هـ - 595هـ): سلطان المغرب والأندلس، وثاني سلاطين الموحّدين ولد في تينملل بالمغرب، وتولّى الحكم بعد وفاة أبيه، سنة 558هـ، واجه بعض الاعتراضات من إخوانه الأكبر منه سنًّا، كان عادلاً حازماً ديّنًا، خبيراً بشؤون الحكم، شديدًا على العصاة والمفسدين بعيد الهمّة، شديد الكرم والبذل والمواساة، كما كان من العلماء الأدباء، حافظاً للقرآن الكريم، من رواة الحديث المتقنين، حتّى أنّه كان يحفظ صحيح البخاريّ بسنده، ورغم أرومته البربريّة فقد كان شديد الفصاحة، يعلم أخبار العرب في الجاهليّة والإسلام (ترجمته في: العبر، 238/6 – وفيات الأعيان، 373/2 - الأعلام، 241/8 ...)

[3] - يقول الذّهبيّ: "كان يحيى بن خالد البرمكيّ كامل السؤدد، جليل المقدار، بحيث إن المهدي ضم إليه ولده الرشيد، فأحسن تربيته وأدبه، فلما أفضت الخلافة إلى الرشيد، ردّ إلى يحيى مقاليد الأمور ورفع محله، وكان يخاطبه يا أبي، فكان من أعظم الوزراء، ونشأ له أولاد صاروا ملوكا، ولا سيما جعفر، وما أدراك ما جعفر؟ له نبأ عجيب، وشأن غريب، بقي في الارتقاء في رتبة، شرك الخليفة في أمواله ولذاته وتصرفه في الممالك، ثم انقلب الدست في يوم، فقتل، وسجن أبوه وإخوته إلى الممات، فما أجهل من يغتر بالدنيا! وقال الأصمعي : سمعت يحيى بن خالد يقول : الدنيا دول ، والمال عارية ، ولنا بمن قبلنا أسوة ، وفينا لمن بعدنا عبرة

قال إسحاق الموصلي : كانت صلة يحيى إذا ركب لمن سأله مائتي درهم ، أتيته ، وقد شكوت إليه ضيقا ، فقال : ما أصنع بك ؟ ما عندي شيء ، ولكني قد جاءني خليفة صاحب مصر يسأل أن أستهدي صاحبه شيئا ، فأبيت ، فألح ، وبلغني أن لك جارية بثلاثة آلاف دينار ، فهو ذا أستهديه إياها ، فلا تنقصها من ثلاثين ألف دينار شيئا . قال : فما شعرت إلا والرجل قد أتى ، فساومني بالجارية ، فبذل عشرين ألفا , فلنت فبعتها . فلما أتيت يحيى ، عنفني ، ثم قال : وهذا خليفة صاحب فارس قد جاءني فى نحو هذا ، فخذ جاريتك مني ، فإذا ساومك ، لا تنقصها من خمسين ألف دينار . قال : فأتاني ، فبعتها بثلاثين ألفا ، فلما صرت إلى يحيى ، قال : ألم نؤدبك ؟ خذ جاريتك. قلت : قد أفدت بها خمسين ألف دينار ، ثم تعود إلي هي حرة ، وإني قد تزوجتها" (سير أعلام النّبلاء، 60/9).

[4] - عباس إحسان، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة. دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط2 ،1969، ص 325.

[5] - ابن القصيرة الكاتب محمد بن سليمان أبو بكر الكلاعي الأشبيلي الكاتب المعروف بابن القصيرة رأس أهل البلاغة توفي عن سن عالية سنة ثمان وخمس ماية وقد خرف كان من أهل التفنن في العلوم وسافر رسولا عن المعتمد بن عباد إلى الملوك غير مرة وأورد له صاحب الذخيرة في كتابه رسايل وشعرا من ذلك ما كتبه إلى المعتمد هنا بولد جاء لولده سراج الدولة عباد

* لم يستهل بكا ولكن منكرا * أن لم تعد لم تعد له الدروع لفايفا *
* أو لم يكن بين المذاكي مهده * بدءا ومشتجر الرماح مآلفا *
* شيم الليوث تبين في أشبالها * من قبل أن تلغ الدماء رواشفا *

وقوله من أخرى في التهنئة به

* ابصره مرتقيا على درجاته * مثل الهلال إذا جرى بمنازله *
* والغصن في طبع الأرومة ما زكت * إلا وطابقها زكاء شمايله*

[6] - ضيف شوقي، عصر الدّول والإمارات، الجزائر – المغرب الأقصى – موريطانيا – السّودان، دار المعارف، القاهرة، ط1، ص: 490.

[7] - العسكريّ أبو هلال، الحسن بن عبد الله، الصّناعتين، الكتابة والشّعر، تح: علي محمّد البجاويّ، محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربيّ، بيروت، ص: 159.

[8] - الإحاطة: 1/ 263 – 271 – إعتاب الكتّاب: 225 – جذوة الاقتباس، 175/1 - نفح الطّيب: 5/ 183-184 - ذكريات مشاهير رجال المغرب (في الأدب) ص: 746 - رسائل موحّديّة – مجموعة جديدة، العزّاويّ، ص: 20.

[9] - هذا الثّائر هو محمّد بن عبد الله بن هود بن عبد الله السلاوي لم يذكر المؤرخون سنة مولده، لكن بالمقابل سجلوا تاريخ مقتله سنة 542 هـ - 1148 م، يُعرف بالماسي، كان ثائرا مغربيا أنشأ ملكا في صدر الدعوة الموحدية، أصله من أهل سلا. تلقّب بالهادي، وظهر في رباط ماسة بمنطقة السّوس، وكثر أتباعه، حتّى قضى عليه أبو حفص عمر سنة (المعسول للسّوسيّ، ص: 25 - العبر، 232/6 – البيان المغرّب، 26/3).

[10] - أورد الرّسالة كلّ من: ابن الأبّار، إعتاب الكتّاب، ص: 227-229 - ابن الخطيب في الإحاطة، 269/1-270 - المقّريّ في نفح الطّيب، 187/5-188 - السّملاليّ في الاستقصا، 111/2-112 – الحميريّ في الرّوض المعطار، ص: 522 (مادّة ماست).

[11] - ترجمته في: الإعلام بمن حلّ بمراكش وأغمات من الأعلام، 357/8 – رسائل موحّديّة – مجموعة جديدة، ص: 20.

[12] - كان المسوفيّ عاملاً على إشبيلية من قبل الموحّدين سنة 1147م.

[13] - ابن مردنيش (1124 - 1172)، هو أبو عبد الله محمد بن سعد بن محمد بن أحمد بن مردنيش الجذامي بالولاء، ملك شرقي الأندلس، من أسرة إسبانية مولّدة اعتنقت الإسلام، وحسن إسلام بعض أفرادها؛ فجده الزاهد المجاهد محمد بن أحمد بن مردنيش صاحب المغازي والفضائل، ويعود أصل التسمية (ابن مردنيش) إلى (Martinez) المشتق من تسمية بيزنطية قديمة. ولد في مدينة بينيسكولا في الولاية الجديدة كاستيون دي لا بلانا، اتخذ ابن مردنيش من مرسية عاصمةً له، فحظيت بعنايته واهتمامه، وانعمرت في زمانه حتى صارت قاعدة الأندلس، وقد اهتم بجمع الصنّاع لآلات الحروب وللبناء والترخيم واشتغل ببناء القصور العجيبة، والنزه والبساتين العظيمة، وربط نفسه بتحالفات مع القوّاد المجاورين له من الثوار على المرابطين، وصاهر بعضهم؛ ليزيد من نفوذه، وكان من أشهر هؤلاء القواد إبراهيم بن محمد بن مفرج بن همشك ـ وهمشك الجد الإسباني الأصل أسلم على يد مَلِكٍ من بني هود ـ وقد ولاه ابن مردنيش جيان لخدماته التي أسداها ... (ترجمته في: الحلة السيراء، 232/2 - دولة الإسلام في الأندلس، عصر المرابطين والموحّدين، ص: 367...)

[14] - فحص الجلاب: مكان على بعد 12 كيلومتراً جنوب مُرسية، جرت فيها المعركة بين الموحّدين وابن مردنيش.

[15] - رايات المبرّزين، ص: 265 - المعجب، ص: 150- موسوعة العلماء والأدباء الجزائريّين، ص: 273، وقد أورد له صاحب رايات المبرّزين أبياتاً (وهو يسمّيه القالي نسبة إلى القالة)، نقلها عن طرف الظّرفاء للشّقندي، وهي:

أَشْهَرُ الصَّوْمِ مَا مِثْلُـ ـــكَ عِنْدَ اللهِ مِنْ شَهْرِ
عَلَى أَنَّكَ قَدْ حَرَّمْـ ـــتَ فِينَا لَذَّةَ السُّكْرِ
وَقَرْعَ الْكَأْسِ بِالْكَأْسِ وَرَشْفَ الثَّغْرِ بِالثَّغْرِ
وَإِنِّي وَالَّذِي شَرَّ ....فَ أَوْقَاتَكَ بِالذِّكْرِ
وَمَا أَمْسَى يُصَلِّى فِيـ ـكَ مِنْ شَفْعٍ وَمِنْ وَتْرِ
لَمَسْرُورٌ بِأَنْ تَفْنَى عَلَى أَنَّكَ مِنْ عُمْرِي

[16] - معجم أعلام الجزائر، ص: 213.

[17] - الشّورى: 28.

[18] - الأصفهانيّ، العماد، خريدة القصر، قسم شعراء المغرب والأندلس، تح: محمّد المرزوقيّ، محمّد العروسي المطويّ، الجيلالي بن الحاج يحيى، الدّار التّونسيّة للنّشر، ط3، 1986، 180/1.

[19] - بروفنصال، ص: 113-114.

[20] - المرجع نفسه، ص: 121-122.

[21] - المرجع نفسه، ص: 125-126.

[22] - الإمام الحافظ، النّاقد المجوّد أبو بكر غالب بن عبد الرّحمن بن غالب بن تمّام بن عطيّة المحاربيّ الأندلسيّ، الغرناطيّ المالكيّ (441 - 518هـ): روى عن أبيه والحسن بن عبيد الله الحضرميّ، ومحمّد بن حارث، ومحمّد بن أبي غالب القرويّ، ورأى ابن عبد البرّ، وحجّ سنة تسع وستّين، فسمع عيسى بن أبي ذرّ والحسين بن علي الطّبريّ، وأبا الفضل الجوهريّ، ومحمّدا بن معاذ التّميميّ المهدويّ، روى عنه ولده صاحب التّفسير الكبير، قال ابن بشكوال: "كان حافظاً للحديث وطرقه وعلله، عارفاً بالرّجال، ذاكراً لمتونه ومعانيه، قرأت بخطّ بعض أصحابنا أنّه سمعه يذكر أنّه كرّر عليه صحيح البخاري سبعمائة مرّة" (سير أعلام النّبلاء، 586/10).

[23] - محمّد بن سابق الصّقلّي، يكنّى أبا بكر، الجزيريّ نسبة إلى شقر، عرف بابن الرّماح، وجاء في التّكملة: "وعندي أنّ أبا بكر الجزيريّ هو محمّد بن سابق الصّقلّي نسب إلى جزيرة شقر ويكنّى أبا بكر"، رحل إلى الأندلس وأخذ عنه أهل غرناطة، وكان من أهل الكلام مائلاً إليه، فأخذ عنه تلاميذ عدّة أشهرهم ابن القصير والزّنيقيّ وغيرهم، كما اتّجه إلى مكّة وأخذ عن مشايخها ومنهم شيخته كريمة بنت أحمد المروزيّة، وظلّ يتردّد على المشائخ وينتقل من بلد إلى آخر، إلى أن انتهى به المطاف في مصر، فأقام بها إلى أن وافاه أجله في ربيع الأوّل من عام 493هـ، ومن شيوخه هناك أبو علي الحضرميّ القيروانيّ الذي يبدو أنّه التقاه في الاسكندريّة، واستمع لدروسه وحضر مجالسه في علم الكلام (ترجمته في: الصّلة برقم 1333 - التّكملة لكتاب الصّلة، 157/2 - بغية الملتمس، برقم 140).

[24] - ابن الزّبير، صلة الصّلة، ص: 291.

[25] - والده هو علي بن طاهر بن تميم القيسي، أبو الحسين، ويقال أبو الحسن، ويعرف بابن محشرة: قاض، حافظ، محدث، من فقهاء المالكية، من أهل بجاية، وبها نشأ وتعلم. رحل إلى الأندلس، وروى عن أبي بكر غالب بن عطية وغيره. روى عنه ابن أخته محمد بن علي ابن الرمامة، المتوفي سنة 567 هـ. وولي قضاء بجاية (معجم أعلام الجزائر، ص: 53).

[26] - الغبريني، عنوان الدراية، ص53.

[27] - هو مسعود بن سلطان بن زمام، أبو سرحان، أمير بني رياح، كان من الخارجين على بني عبد المؤمن.

[28] - الغبريني، ص 53- 54.

[29] - أخرجه التّرمذيّ (327)، وابن ماجة (775)، وأحمد (7649)، وفي البخاريّ (635): "بَيْنَما نَحْنُ نُصَلِّي مع النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذْ سَمِعَ جَلَبَةَ رِجَالٍ، فَلَمَّا صَلَّى قَالَ: ما شَأْنُكُمْ؟ قالوا :اسْتَعْجَلْنَا إلى الصَّلَاةِ؟ قَالَ: فلا تَفْعَلُوا إذَا أَتَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَعَلَيْكُم بالسَّكِينَةِ، فَما أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا وما فَاتَكُمْ فأتِمُّوا".

[30] - عنوان الدّراية، ص: 54-55.

[31] - المراكشي عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ت: محمد زينهم، محمد عزب. دار الفرجاني للنشر والتوزيع، د.ت، د.ط، ص 220.

[32] - بروفنصال، ص: 149- 157.

[33] - تاريخ ابن خلدون، 500/6.

[34] - بروفنصال، ص: 152.

[35] - بروفنصال، ص: 158 – 163.

[36] - بروفنصال، ص: 162.

[37] - بروفنصال، ص: 164 – 167.

[38] - خياري، أدب الرّسائل الدّيوانيّة، ص: 192.

[39] - بروفنصال، ص: 165 – 167.

[40] - يقول "ألفرد بل" إنّه في عام 541هـ، خلف الموحّدون المرابطين وانتهت الإمبراطوريّة التي أسّسها يوسف بن تاشفين بوفاة حفيده إسحاق بن علي بن يوسف بن تاشفين، وفتح مراكش، وعندما عبر الموحّدون جبل طارق لغرض الجهاد عظم خطرهم، وبدأت الدّولة الجديدة تهدّد أمراء البلبار، بقايا المرابطين بالأندلس، وعلى أمل التّحرّر من قيد الموحّدين، إلى جانب الحقد الذي يكنّه علي بن غانية لبني عبد المؤمن، دخل هذا الأمير في مواجهة مع الموحّدين، ونقل المعركة إلى المغرب الأوسط عن طريق البحر، فاستولى على بجاية، وكان آخر حكّام بني حمّاد يحمل في قلبه حقداً على الموحّدين الذين قضوا على دولته، ولكن بعد انتصارات قليلة اضطرّ ابن غانية للهروب إلى المغرب الأقصى، وتوفّي بها بعد ثلاث سنوات من الصّمود، وترك بعده أخاه قائداً لقوّاته (خياريّ، ص: 193)

[41] - بروفنصال، ص: 168 – 180.

[42] - بروفنصال، ص: 180 – 191. وقابس مدينة قديمة تقع في جنوب تونس لها حصن منيع، وتشتهر بزراعة الموز، شبّهها ابن سعيد المغربيّ بمدينة دمشق (الاستبصار، ص: 112-113).
[43] - خياري، أدب الرّسائل الدّيوانيّة، ص: 191.
[44] - بروفنصال، ص: 191 – 199.
[45] - بروفنصال، ص: 199 – 210.
[46] - بروفنصال، ص: 210 – 218.
[47] - بروفنصال، ص: 218 – 228.
[48] - تشترك جميع الرّسائل الموحّديّة في ذكر العبارة: **"والرّضا عن الإمام المعصوم المهديّ المعلوم"**، كما أنّ العلامة السّلطانيّة: **"والحمد لله وحده"** قد اتّخذها الخلفاء الموحّدون شعاراً لكتبهم الرّسميّة، لمّا وجدوها في بعض خطابات ابن تومرت. ويذكر في هذا الصّدد أبيات للشّاعرة حفصة بنت الحاج الرّكونيّة تمدح بها عبد المؤمن بن عليّ:

يَا سَيِّدَ النّاسِ يَا مَنْ يُؤْمِلُ النَّاسُ رَفْدَهْ
امْنُنْ عَلَيَّ بِصَكٍّ يَكُونُ لِلدَّهْرِ عُدَّهْ
تَخُطُّ يُمْنَاكَ فِيهِ وَالْحَمْدُ لله وَحْدَهْ

[49] - القلقشندي، صبح الأعشى، 432/6.
[50] - القيسيّ فايز، أدب الرّسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجريّ، دار التّبشير للنّشر والتّوزيع، عمّان، ط1، 1989، ص: 315.
[51] - القالمي، ضمن مجموع رسائل موحّديّة، الرّسالة الحادية والعشرون، ص: 120.
[52] - الرّسالة الثّانية والعشرون، ص: 126.
[53] - ابن محشرة، الرّسالة السّادسة والعشرون، ص: 157.
[54] - ابن محشرة، الرّسالة السّابعة والعشرون، ص: 163.
[55] - ابن محشرة، الرّسالة التّاسعة والعشرون، ص: 180.
[56] - ابن محشرة، الرّسالة الحادية والثّلاثون، ص: 199.
[57] - ابن محشرة، الرّسالة الثّانية والثّلاثون، ص: 210.
[58] - ابن محشرة، الرّسالة الثّالثة والثّلاثون، ص: 218.
[59] - ابن محشرة، الرّسالة الرّابعة والثّلاثون، ص: 228.
[60] - القالمي، ضمن مجموع رسائل موحّديّة، الرّسالة الحادية والعشرون، ص: 120.
[61] - ابن محشرة، الرّسالة السّادسة والعشرون، ص: 157.
[62] - ابن محشرة، الرّسالة السّابعة والعشرون، ص: 163.
[63] - ابن محشرة، الرّسالة الثّامنة والعشرون، ص: 167.
[64] - ابن محشرة، الرّسالة الثّلاثون، ص: 191.
[65] - ابن محشرة، الرّسالة الحادية والثّلاثون، ص: 199.
[66] - ابن محشرة، الرّسالة الثّانية والثّلاثون، ص: 210.
[67] - ابن محشرة، الرّسالة الثّالثة والثّلاثون، ص: 218.
[68] - ابن محشرة، الرّسالة الرّابعة والثّلاثون، ص: 228.
[69] - ينظر: خياري، أدب الرّسائل الدّيوانيّة، ص: 120-121.
[70] - آل عمران: 174.
[71] - مجموع رسائل موحّديّة، ص: 115.
[72] - الأنعام: 125.
[73] - الطّلاق: 7
[74] - النّور: 35.
[75] - البقرة: 16.
[76] - المسد: 1.
[77] - هود: 83.
[78] - هود: 48.
[79] - الأحزاب: 61.
[80] - الفتح: 23.
[81] - آل عمران: 112.
[82] - الإسراء: 5.
[83] - الرّسالة الثّانية والعشرون، ص: 121.
[84] - الفرقان: 26.
[85] - الفتح: 18-19.
[86] - الرّسالة السّابعة والعشرون، ص: 162.
[87] - نوح: 20.
[88] - فاطر: 43.
[89] - النّحل: 112.

[90] - الأعراف: 117.
[91] - طه: 69.
[92] - الرّسالة الحادية الثّلاثون، ص: 192.
[93] - الرّسالة الثّانية والعشرون، ص: 125.
[94] - رواه مسلم، حديث رقم: (2922)، وروى البخاري (3593)، ومسلم (2921) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: (تُقَاتِلُكُمُ اليَهُودُ فَتُسَلَّطُونَ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ يَقُولُ الحَجَرُ: يَا مُسْلِمُ هَذَا يَهُودِيٌّ وَرَائِي، فَاقْتُلْه).
[95] - مجموع رسائل موحّديّة، ص: 150.
[96] - رواه البخاريّ (739) ومسلم: رقم 521. (خلاصة حكم المحدث).
[97] - صحيح مسلم: 2889. صحيح ابن حبّان: 7238.
[98] - هذا الحديث رواه ابن عبد البر في "جامع بيان العلم وفضله" (895) وابن حزم في "الإحكام" (244/6) من طريق سلام بن سليم، قال: حدثنا الحارث بن غصين، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم". وسلام بن سليم، ويقال ابن سليمان، متروك متهم قال ابن معين: ليس حديثه بشيء، وأخرجه الخطيب في " الكفاية في علم الرواية " (ص 48) والبيهقي في " المدخل " (152) والديلمي (75/4) من طريق سليمان ابن أبي كريمة عن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس مرفوعا بلفظ: "إن أصحابي بمنزلة النجوم في السماء، فأيها أخذتم به اهتديتم، واختلاف أصحابي لكم رحمة "
[99] - أخرجه أبو داود (3687)، والتّرمذيّ (1866) واللّفظ له، وأحمد (24992)
وفي هذا الحديثِ يقولُ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: "كلُّ مُسكِرٍ"، أي: كلُّ ما غيَّب العقلَ "حرامٌ"، أي: أمَر اللهُ بمَنع شُربِه وتَجرُّعِه، "ما أسكَرَ الفَرَقُ منه"، والْفَرَقُ- بفتح الرَّاء- مِكْيالٌ يسع لكميَّةٍ كَبيرةٍ، يسَعُ سِتَّةَ عشَرَ رِطْلًا، والرِّطلُ اثْنا عشَرَ مُدًّا وثلاثةُ آصُعٍ عِندَ أهلِ الحجازِ، وقيل: الفَرَقُ خمسةُ أقساطٍ، والقِسْطُ نِصفُ صاع، وأمَّا الفَرْقُ بالسُّكونِ فمِئةٌ وعِشْرون رِطْلًا، "فمِلْءُ الكفِّ منه حرامٌ"، أي: إذا أسكَر كثيرُه؛ فقَليلُه- وهو مِلءُ الكفِّ- حرامٌ.
[100] - كانت هند بنت عوف بن عامر بن نزار بن بجيلة تحت ذهل بن ثعلبة بن عكابة، فولدت له عامراً وشيبان، ثمّ هلك عنها ذهل فتزوّجها بعده مالك بن بكر بن سعد بن ضبّة، فولدت له ذهل بن مالك، فكان عامر وشيبان مع أمّهما في بني ضبّة، فلمّا هلك مالك بن بكر انصرفا إلى قومهما، وكان لهما مال عند عمّهما قيس بن ثعلبة فوجداه قد أتواه، فوثب عامر بن ذهل فجعل يخنقه، فقال قيسك: يا ابن أخي دعني فإنّ الشّيخ متأوّه، فذهب قوله مثلاً، ثمّ قال: ما كلّ بيضاء شحمة، ولا كلّ بيضاء تمرة، يعني أنّه وإن أشبه أباه خلقاً فلم يشبهه خُلقاً، فذهب قوله مثلاً (المثل في: مجمع الأمثال: 281/2 – جمهرة الأمثال: 226/2-287).
[101] - قال أبو عبيد: أصلُه أن رجلا خرج يلتمس العَشَاء، فوقع على ذئب فأكله، وقال الأصمعيّ: أصلُه أن دابةً خرجت تطلب العشاء، فلقيها ذئب فأكلها، وقال ابن الأعرابي :أصل هذا أن رجلا من غَنِيٍّ، يقال له سِرْحَان بن هزلة كان بطلاً فاتكا يتَّقِيه الناسُ، فقال رجل يوماً: والله لأَرْعِيَنَّ إبلي هذا الوادي، ولا أخاف سرحان بن هزلة، فورد بإبله ذلك الوادي، فوجد به سِرْحان وهَجَم عليه فقتله، وأخذ إبله (المثل في: مجمع الأمثال: 328/1)
[102] - الرّسالة الثّلاثون، ص: 185.
[103] - المرخ من شجر النار، معروف، سريع الوري كثيره، وفي المثل في كل شجرة نار، واستمجد المرخ والعفار واستمجد: استفضل. قال أبو حنيفة: معناه اقتدح على الهويني فإن ذلك مجزىء إذا كان زنادك مرخا. وقيل، العفار: الزند وهو الأعلى، والمرخ الزندة، وهو الأسفل.
قال الشاعر:

إذا المرخ لم يور تحت العفار * وضن بقدر فلم تعقب

وقال أبو حنيفة: المرخ من العضاه، وهو ينفرش ويطول في السماء حتى يستظل فيه، وليس له ورق ولا شوك، وعيدانه سلبة قضبان دقاق، وينبت في شعب وفي خشب، ومنه يكون الزناد الذي يقتدح به، واحدته مرخة. وقول أبي جندب:

فلا تحسبن جاري لدى ظل مرخة * ولا تحسبنه فقع قاع بقرقر

خص المرخة لأنها قليلة الورق سخيفة الظل. وقال أبو زياد: ليس في الشجر كله أورى نارا من المرخ. قال: وبما كان المرخ مجتمعا ملتفا وهبت الريح وجاء بعضه بعضا فأورى فأحرق الوادي، ولم نر ذلك في سائر الشجر. قال الأعشي:

زنادك خير زناد الملو * ك خالط فيهن مرخ عفارا
ولو بت تقدح في ظلمة *حصاة بن ضبع لأوريت نارا

[104] - الرّسالة الثّلاثون، ص: 188.
[105] - قال أبو عبيدة: الإعصار ريح تهبّ شديدة فيما بين السّماء والأرض، يضرب مثلاً للمدلّ بنفسه إذا صُلي بمن هو أدهى منه وأشدّ (مجمع الأمثال: الباب الأوّل: فيما أوّله همزة، رقم 113، 30/1).
[106] - البيد جمع بيداء، والسّمالق: جمع سملق، وهي الأرض البعيدة الأطراف.
[107] - الرّسالة الثّانية والثّلاثون، ص: 199-200.
[108] - اليازجي ناصيف، العرف الطّيّب، شرح ديوان أبي الطّيّب، شركة الأرقم بن أبي الأرقم للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، ص: 93.